الثَّلاثةُ الذِين خُلِفُوا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

تُعد غـزوة تبـوك مـن المحطـات المهمـة في تاريـخ الإسلام؛ حيـث دعـا النبي ﷺ المسلمين للخـروج لمواجهـة الـروم في ظـروف شديدة الصعوبـة؛ مـن شـدة الحـر، وقلـة المـوارد، وبعـد المسـافة. لبَّى معظـم الصحابـة هـذا النـداء العظيـم، إلا أن هنـاك مـن تخلـف عنهـا بعـذر أو بـغير عـذر. ومـن بين الذيـن تخلفـوا بـدون عـذر، ثلاثـة مـن الصحابـة الصـادقين، وهـم: كعـب بـن مالـك، ومـرارة بـن الربيـع، وهلال بـن أميـة- رَضيَ اللـهُ عنهـم.

ورغـم خطئهـم في التخلـف عـن هـذه الغـزوة، إلا أنهـم أظهـروا أروع صـور الصـدق والـصبر في توبتهـم، عندمـا اعترفـوا بذنوبهـم، ولـم يلجـؤوا إلى الكـذب أو التبريـر. فـكان ذلـك درسًـا عظيمًـا في الصـدق مـع اللـه والنفـس، وفي التوبـة النصـوح التي تُفتح بها أبـواب رحمة اللـه ومغفرتـه. وقصـة هـؤلاء الثلاثـة تحمـل في طياتها كـثيرًا مـن العبر التي يجـب أن نتأملها، ونتعلـم منها في حياتنـا

عناصر الموضوع

١. قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا: عبرة في الصدق والثبات.

٢. كعب بن مالك وقصة تخلفه عن غزوة تبوك.

٣. بيان حكمة النبي ﷺ في الإعلام بالوجهة.

٤. وحدة كعب بن مالك في المدينة ومعاناته.

٥. تذكر النبي ﷺ غياب كعب بن مالك في تبوك.

٦. النبي ﷺ في طريقه إلى المدينة.

٧. لقاء كعب بن مالك برسول الله ﷺ.

٨. صدق كعب بن مالك وثباته رغم اللوم.

٩. النهي عن التكلم مع الثلاثة.

١٠. حال كعب رَضيَ اللهُ عنه.

١١. مواقف مع النبي ﷺ.

١٢. ذهابه إلى ابن عمه.

١٣. بكاء كعب رَضيَ اللهُ عنه.

١٤. رسالة ملك غسان.

١٥. رأي كعب بن مالك في طلب الاستئذان.

١٦. بشرى الفرج وتوبة الله على كعب بن مالك وصاحبيه.

١٧. فرحة التوبة والفضل العظيم للصِّدق.

١٨. فضل الصدق والتحذير من الكذب.

١٩. دروس مستفادة من قصة كعب بن مالك رَضيَ اللهُ عنه.

قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا

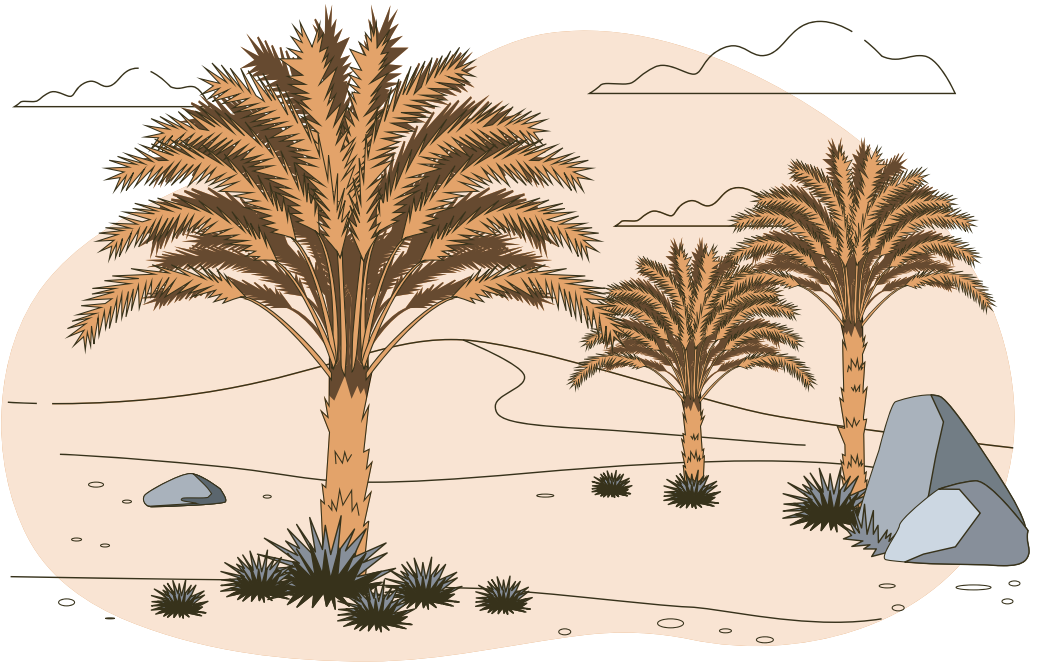

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يُوسُف: ١١١]، وفي هذا السياق العظيم، تأتينا قصة تحمل كثيرًا من العبر والدروس.

حادثة غريبة هزت أجواء المدينة المنورة، وخلَّدها القرآن الكريم في سورة التوبة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التَّوۡبَة: ١١٨] إنها قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك، القصة التي كشفت الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، وأظهرت قيمة الصدق في القول والعمل. لقد كان لهذه الحادثة أثر كبير في أجواء المدينة، وبيان عظيم في القرآن الكريم، لتبقى ذكرى للعبرة والتأمل.

فالقصص في القرآن الكريم ليست مجرد سردٍ للأحداث، وإنما وسيلة عظيمة لتثبيت القلوب، خاصة في أوقات الأزمات، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هُود: ١٢٠].

فهل أدركتم عِظم القصة؟ إنها قصة الصحابي الجليل كعب بن مالك وصاحبيه- رَضِيَ اللهُ عنهم- الذين صدقوا الله في توبتهم بعد تخلفهم عن الغزوة، فقابلهم النبي ﷺ بالهجر خمسين ليلة. قصة مليئة بالعبر والدروس العظيمة التي تدعونا للتأمل في صدقهم وثباتهم.

فلنبحر مع القصة كما وردت، لنعيش أحداثها، ونستقي من عبرها وفوائدها ما يُصلح أحوالنا

قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٧] - يخبر -تعالى- أنه من لطفه وإحسانه تَابَ عَلَى النَّبِيِّ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- {وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ}، فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات. ولهذا قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾، أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك»، وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

- فاستعانوا بالله تعالى، وقاموا بذلك: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾، أي: تنقلب قلوبهم، ويميلون إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين، كان كفرًا، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة، التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم، وثبتهم عليها[1].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٨]

كذلك لقد تاب الله ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن الخروج مع المسلمين، في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحباه.

- كذلك تاب الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا من الأنصار، وهم:

- كعب بن مالك.

- هلال بن أُميَّة.

- مُرَارة بن الربيع.

تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ، وحزنوا حزنًا شديدًا، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

هذه الآية الكريمة معطوفة على الآية السابقة لها

والمعنى: لقد تقبل الله-تبارك وتعالى- بفضله وإحسانه توبة النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، وتقبل كذلك توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كسلًا وحبًا للراحة، والذين سبق أن أرجأ الله حكمه فيهم بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٦].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

(١) ص٣٥٤ - كتاب تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن - المكتبة الشاملة.

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التَّوبَة: ١١٨] كناية عن شدة تحيرهم، وكثرة حزنهم، واستسلامهم لحكم الله فيهم[1].

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا، و ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾، أي: على سعتها ورحبها. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾، التي هي أحب إليهم من كل شيء. فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه؛ وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾، أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويُلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها: ﴿ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾، أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها[2].

(١) تفسير الوسيط: راجع تفسير الآية رقم ١٠٦ من هذه السورة ص ٣٩٩.

(٢) تفسير السعدي، ص٣٥٤ - السعدي كتاب تيسير الكريم المنان -المكتبة الشاملة

كعب بن مالك وقصة تخلفه عن غزوة تبوك

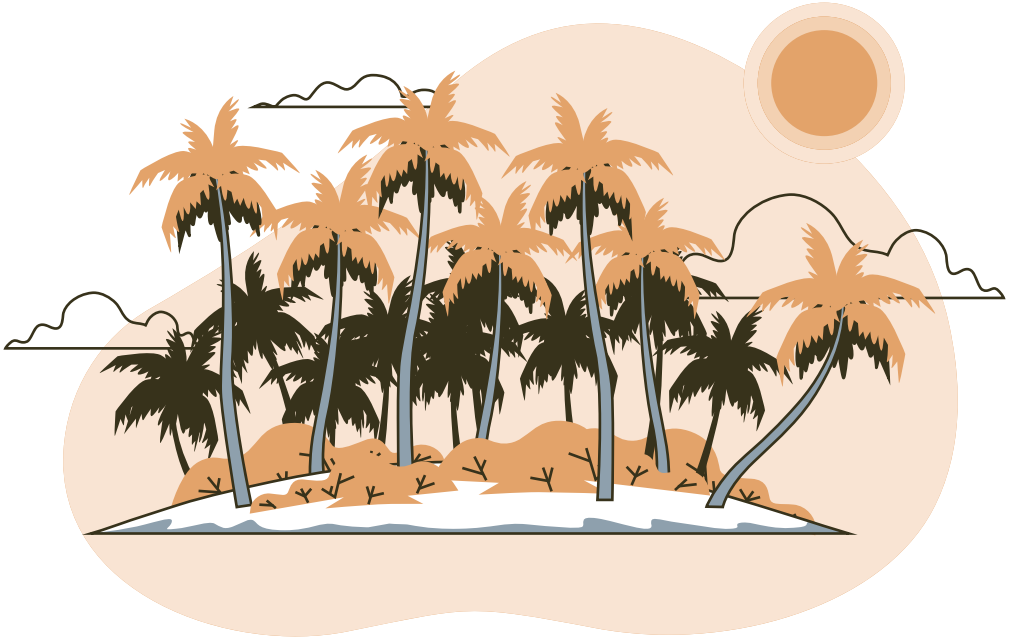

وفي هذا الحَديثِ يَرْوي عَبدُ اللهِ بنُ كَعبٍ، عن أبيه كَعبِ بنِ مالِكٍ -رَضيَ اللهُ- عنه قصَّةَ تَخلُّفِه عن غَزْوةِ تَبوكَ، وكان كَعبُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه قدْ كُفَّ بَصَرُه في آخِرِ حَياتِه، وكان ولَدُه عَبدُ اللهِ قائدَه.

وغَزْوةُ تَبوكَ آخِرُ غَزْوةٍ خرَجَ فيها رَسولُ اللهِ ﷺ بنفْسِه، وكانت في رجَبٍ سَنةَ تِسعٍ مِن الهِجْرةِ، وكانت معَ الرُّومِ، وتَبوكُ في أقْصى شَمالِ الجَزيرةِ العَربيَّةِ، وتقَعُ في شَمالِ المَدينةِ على بُعدِ ٧٠٠ كم.

ويَحْكي كَعبُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه أنَّه لم يكُنْ مِن عادَتِه التَّخلُّفُ عنِ الجِهادِ؛ فهو -رَضيَ اللهُ عنه- قدْ حضَرَ جَميعَ غَزَواتِ الرَّسولِ ﷺ، ولم يتغَيَّبْ عن غَزْوةٍ منها عَدا غَزْوةِ بَدرٍ، وكانت في السَّنةِ الثَّانيةِ مِن الهِجْرةِ، بيْنَ المُسلِمينَ وكفَّارِ قُرَيشٍ، وقد نصَرَ اللهُ نَبيَّه ﷺ وأصْحابَه.

ولمْ يُعاتبِ النَّبيُّ ﷺ أحدًا تَخلَّفَ عن هذه الغَزْوةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ عندَما خرَجَ مِن المَدينةِ لم يَخرُجْ لقِتالٍ، وإنَّما خرَجَ ليتَصَدَّى لقافِلةِ قُرَيشٍ التِّجاريَّةِ، ويَستَوْلي عليها لمَصْلَحةِ المُسلِمينَ، فأراد رَسولُ اللهِ ﷺ العيرَ، واخْتارَ اللهُ له النَّفيرَ، فكان القِتالُ.

ثمَّ ذكَرَ رضي الله عنه أنَّه إذا كان قدْ غاب عن غَزْوةِ بَدرٍ، فإنَّ اللهَ قد عَوَّضَه عنها بحُضورِ بَيْعةِ العَقَبةِ الثَّانيةِ؛ وذلك لأنَّ هذه البَيْعةَ كانت في أوَّلِ الإسْلامِ، ومنها فَشا الإسْلامُ، وكان يَعتَزُّ بها كَثيرًا، ويقولُ: وإنْ كانت غَزْوةُ بَدرٍ أكثَرَ شُهْرةً وذِكرًا في النَّاسِ مِن بَيْعةِ العَقَبةِ.

وكانت البيعةُ قبْلَ الهِجْرةِ بثَلاثةِ أشهُرٍ تَقْريبًا، وكان ذلك عندَ جَمْرةِ العَقَبةِ بمِنًى، وهي الَّتي بايَعَ الأنْصارُ فيها رَسولَ اللهِ ﷺ على الإسْلامِ، وأنْ يُؤْووهُ ويَنصُروه.

ويُخبِرُ كَعبٌ رضي الله عنه أنَّه عندَما دَعا رَسولُ اللهِ ﷺ لغَزْوةِ تَبوكَ، لم يكُنْ عندَه عُذرٌ ألبَتَّةَ في أنْ يَتخَلَّفَ عنِ الخُروجِ معَ رَسولِ اللهِ ﷺ؛ فقدْ جمَعَ بيْنَ القوَّةِ في البَدنِ، والسَّعةِ في المالِ، ولم يَجتمِعْ عندَه دابَّتانِ مُهيَّأتانِ للسَّفرِ مِن قبْلُ إلَّا في هذه الغَزْوةِ.

بيان حكمة النبي في الإعلام بالوجهة

وقدْ أفصَحَ رَسولُ اللهِ ﷺ عن وِجهَتِه في هذه الغَزْوةِ، على خِلافِ عادَتِه ﷺ مِن قبْلُ في جَميعِ غَزَواتِه؛ فقدْ كان ﷺ مِن عادَتِه أنَّه لا يُريدُ غَزْوةً إلَّا وَرَّى بغَيرِها، أي: أوْهَمَ أنَّه يُريدُ غَيرَها. والتَّوْريةُ: أنْ تَذكُرَ لَفظًا يَحتَمِلُ مَعنَيَين، أحَدُهما أقرَبُ مِنَ الآخَرِ، فيُوهِمُ المُتحَدِّثُ إرادةَ القَريبِ، وهو في الحَقيقةِ يُريدُ البَعيدَ.

وقدْ أوضَحَ رَسولُ اللهِ ﷺ لأصْحابِه حَقيقةَ وِجهَتِه في هذه الغَزْوةِ؛ ليَتأهَّبوا للأمْرِ؛ إذ كانت غَزْوةُ تَبوكَ في حَرٍّ شَديدٍ، وسيَقطَعُ المُسلِمونَ خلالَها مَسافةً كبيرةً وصَحْراءَ شاسعةً لا ماءَ فيها. وكان هَدَفُها غَزْوَ الرُّومِ، وقد تَجمَّعَ الرُّومُ في أعْدادٍ كَثيرةٍ، وتَأهَّبوا للقِتالِ، فكان لا بدَّ مِن إعْلامِ النَّاسِ؛ حتَّى يُعِدُّوا للأمْرِ عُدَّتَه.

وتجَهَّزَ رَسولُ اللهِ ﷺ والمُسلِمونَ معَه للخُروجِ، وتَخلَّفَ كَعبُ بنُ مالِكٍ- رَضيَ اللهُ عنه. ويَذكُرُ كَعبٌ -رَضيَ اللهُ عنه- أنَّ المُسلِمينَ كان عدَدُهم كَبيرًا -كانوا يَزيدونَ على عَشَرةِ آلافٍ، وقيلَ: العَشَرةُ آلافٍ كانوا الفُرسانَ، أمَّا إجْماليُّ الجَيشِ فقدْ زادَ على ثَلاثينَ ألفًا- ولا يوجَدُ كِتابٌ يَجمَعُ ويَحفَظُ أسْماءَ المُجاهِدينَ حينَئذٍ، فمَن أرادَ التَّخلُّفَ عنِ الخُروجِ ظنَّ أنَّه سيَخْفى، ولنْ يَنكشِفَ حالُه، ما لم يَنزِلْ وَحْيٌ مِن اللهِ- عزَّ وجلَّ- يُخبِرُ النَّبيَّ ﷺ بحالِ مَن غاب عنِ الخُروجِ؛ لكَثرةِ الجَيشِ

ويُخبِرُ كَعبُ بنُ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ هذه الغَزْوةَ كانت حينَ طابَتِ الثِّمارُ والظِّلالُ؛ فكان الباعِثُ على التَّثاقُلِ أشَدَّ وأقْوى في النُّفوسِ، فمِن ظلٍّ وثمَرٍ في المَدينةِ، إلى حرٍّ شَديدٍ، ومَكارِهِ السَّفرِ، والتَّنقُّلِ عبرَ الصَّحْراءِ

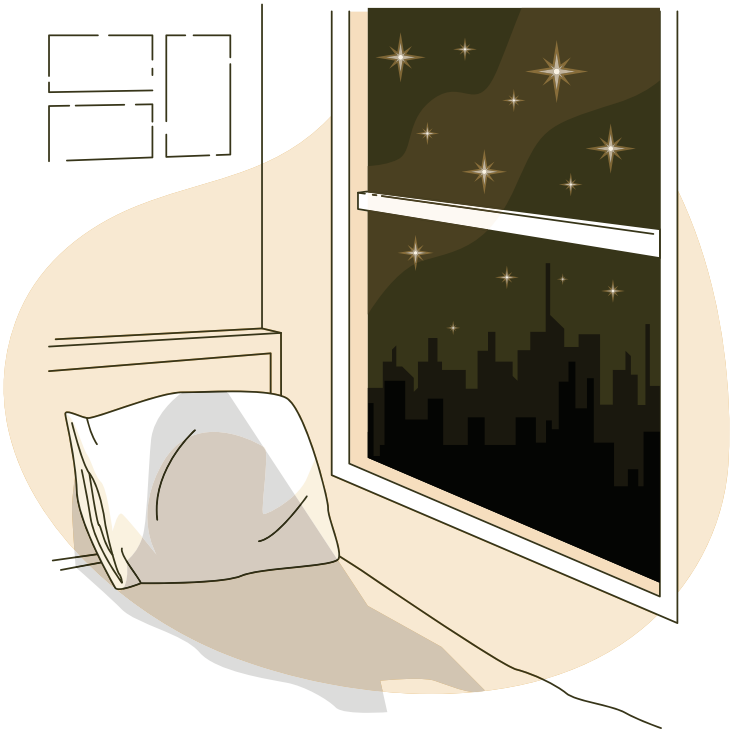

وأعدَّ رَسولُ اللهِ ﷺ عُدَّتَه للغَزْوِ، وتَجهَّزَ المُسلِمونَ معَه، وكان كَعبُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه يَخرُجُ صَباحًا ليَتجَهَّزَ معَهم، ولكنه كان مُتَثاقِلًا يَقْضي يومَه ويَعودُ دونَ أنْ يُنجِزَ شيئًا، ويُصبِّرُ نفْسَه بأنَّه قادرٌ على أنْ يُنجِزَ ما يُريدُ إعْدادَه مِن عَتادِ السَّفرِ وعُدَّةِ القِتالِ قبْلَ أنْ يَأذَنَ رَسولُ اللهِ ﷺ بالخُروجِ.

وما زالَ في الوَقتِ سَعةٌ، حتَّى أسْرَعَ النَّاسُ، واجْتَهَدوا في السَّيرِ، وخرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ والمُسلِمونَ معَه، ولم يَقضِ كَعبٌ رَضيَ اللهُ عنه مِن جَهازِه شيئًا، فقال لنفْسِه: أتَجهَّزُ بعْدَ خُروجِهم في يومٍ أو يَومَين، وألحَقُهم في الطَّريقِ.

وخـرَجَ في أوَّلِ اليـومِ بعْـدَ خُـروجِ رَسـولُ اللـهِ ﷺ ليَتجَهَّـزَ، فعـاد دونَ أنْ يَفعَـلَ شيئًا، وفي اليومِ التَّالي فعَـلَ مِثلَ ذلك، وظـلَّ حالُه هكذا حتَّى تَفارَطَ الغَـزوُ، أي: حتَّى تقـدَّمَ الغُـزاةُ، وتَباعَـدتِ المَسـافةُ فيمـا بيْنَـه وبيْنَهـم، وفي أثْنـاءِ ذلك قصَدَ كَعبٌ رضي الله عنه أنْ يَخـرُجَ إليهم فيُدرِكَهم في الطَّريقِ، ولكنَّه لم يَفعَـلْ، ولـم يَشـأِ اللـهُ لـه هـذا، وتَمنَّى كَعـبٌ أنْ لـو كان خـرَجَ بالفِعـلِ.

وجد نفسه وحيدًا في المدينة

ويَـحْكي كَعـبٌ رضي الله عنه أنَّـه بعْـدَ أنْ ذهَـبَ رَسـولُ اللـهِ ﷺ، كان إذا خـرَجَ في المَدينـةِ ومَشى في النَّـاسِ، يَحـزَنُ؛ لأنَّـه لا يَـرَى مِـن الرِّجـالِ إلَّا مُنافقًـا مَغْموصًـا عليـه النِّفـاقُ، أي: مُتَّهمًـا بالنِّفـاقِ مَطْعونًـا عليـه في دِينِـه، وقيـلَ: مَعناه: مُستَحقَرًا، أو يَجِـدُ رَجلًا مِـن أصْحـابِ الأعْـذارِ الَّذيـن عذَرَهـمُ اللـهُ- عـزَّ وجـلَّ- كالضُّعَفـاءِ، والمَـرْضى، والفُقَـراءِ الَّذيـن لـم يَجِـدوا مـا يَخرُجـونَ بـه مـعَ رَسـولِ اللـهِ - صلَّى اللـهُ عليـه وسـلَّمَ.

تذكر النبي صلى الله عليه وسلم غياب كعب بن مالك في تبوك

ولـم يتَذَكَّـرِ الـنَّبيُّ ﷺ كَعبًـا رضي الله عنه حتَّى وصَـلَ تَبـوكَ، وهنـاك سـألَ عنـه، فـردَّ رَجـلٌ مِـن بَني سَلِمةَ -وهـو عَبدُ اللـهِ بـنُ أُنَيسٍ السَّلَميُّ -رَضيَ اللـهُ عنه- وبَنـو سَـلِمةَ: قَـومُ كَعـبِ بـنِ مالـكٍ رَضيَ اللـهُ عنـه. فقـال: «يا رَسـولَ اللـهِ، حبَسَـه بُـرْداه ونَظَـرُه في عِطْفِـه»، العِطـفُ: الجانـبُ، يَتَّهِـمُ كَعبًـا -رَضيَ اللـهُ عنـه- بأنَّ الَّـذي حبَسَـه إعْجابُـه بنفْسِـه وكِبرُه،

فـردَّ مُعـاذُ بـنُ جَبـلٍ رضي الله عنه غِيبَتَـه، ودافَـعَ عنـه، وأثْنى عليـه، وذكَـرَ أنَّهـم مـا عَلِموا عـن كَعـبٍ -رَضيَ اللـهُ عنه- إلَّا خَيرًا، فلم يكُـنْ يومًـا مُتكبِّرًا، ولا مُعجَبًا بنفْسِه، ولا مُتخلِّفًـا عـن رَسـولِ اللـهِ ﷺ فلا بدَّ أنَّ هناك عُذرًا منَعَه، فسكَتَ رَسولُ اللـهِ ﷺ ولم يقُـلْ شيئًـا

ويَذكُرُ كَعبٌ -رَضيَ اللهُ عنه- أنَّه لمَّا علِمَ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ في طَريقِه إلى المَدينةِ راجِعًا، تَجمَّعَ عليه الهَمُّ والحُزنُ؛ حَياءً مِن لِقاءِ رَسولِ اللهِ ﷺ بعْدَ تَخلُّفِه، وأخَذَ يُعِدُّ العُذرَ لرَسولِ اللهِ ﷺ إذا جاء، ويُهيِّئُ الكَلامَ، ويَحضُرُه الكَذِبُ فيما يُعِدُّه مِن أعْذارٍ، واسْتَعانَ في ذلك بأصْحابِ الرَّأيِ والمَشورةِ مِن أهْلِه.

فلمَّا تَأكَّدَ له أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قدْ دَنا واقتَرَبَ قُدومُه، زالَ عنه الباطلُ، أي: الكَذِبُ الَّذي همَّ أنْ يَعتَذِرَ به لرَسولِ اللهِ ﷺ، وأيقَنَ أنَّه لنْ يُخرِجَه مِن سَخَطِ رَسولِ اللهِ ﷺ أيُّ عُذرٍ فيه كَذِبٌ، فعَقَدَ وعَزَمَ على ألَّا يَقولَ إلَّا الصِّدقَ؛ فلن يُنْجيَه إلَّا الصِّدقُ.

وعاد رَسولُ اللهِ ﷺ إلى المَدينةِ، وقيلَ: كان قُدومُه في شَهرِ رَمضانَ، وكان مِن عادَتِه ﷺ إذا رجَعَ مِن سَفرٍ بَدأَ بالمَسجِدِ، فيُصلِّي فيه رَكعَتَينِ، ويَجلِسُ بعضَ الوَقتِ في أصْحابِه قبْلَ أنْ يَدخُلَ بَيتَه.

فجاءَه المُخلَّفونَ الَّذين خلَّفَهم كَسَلُهم ونِفاقُهم عنِ الخُروجِ معَ رَسولِ اللهِ ﷺ، وأخَذوا يُظهِرونَ له ﷺ الأعْذارَ، ويَحلِفونَ أنَّهم صادِقونَ فيما اعْتَذَروا به.

وكان عددُ مَن تَخلَّفَ مِن الأنصارِ بِضْعةً وثَمانينَ رَجلًا، والبِضْعُ العَددُ مِن ثَلاثٍ إلى تِسعٍ.

فقبِلَ منهم رَسولُ اللهِ ﷺ عُذرَهم على ظاهِرِ قَولِهم، وتَرَكَ حَقيقةَ أمْرِهم وما يُضمِرونَه للهِ عزَّ وجلَّ.

وقيلَ: إنَّ المُعَذِّرينَ منَ الأعْرابِ من غير الأنْصارِ كانوا أيضًا اثنَين وثَمانينَ رَجلًا مِن غِفارَ وغَيرِها، وأنَّ عَبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ومَن أطاعَه مِن قَومِه مِن غَير هؤلاء كانوا كَثيرًا

لقاء كعب بن مالك برسول الله - صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

وجاء كَعبُ بنُ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فسلَّمَ عليه، فتبَسَّمَ له رَسولُ اللهِ ﷺ تبسُّمَ مَن يَظهَرُ عليه الغضَبُ، ودَعاه رَسولُ اللهِ ﷺ، فتَقدَّمَ كَعبٌ حتَّى جلَسَ بيْن يدَيْ رَسولِ اللهِ ﷺ، فسَألَه ﷺ عن سَببِ تَخلُّفِه عنِ الغَزوِ،

وذَكَرَ له ﷺ أنَّه كان قدِ اشْتَرى راحِلَتَه، وأعَدَّها للخُروجِ، فلماذا تَخلَّفَ؟

فلم يَكذِبْ كَعبُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه عندَما سَألَه النَّبيُّ ﷺ عن سَببِ تَخلُّفِه؛ بلْ أجابَه بكُلِّ صِدقٍ أنَّه لمْ يكُنْ يُوجَدُ ما يَمنَعُه مِن التَّخلُّفِ؛ أمَلًا أنْ يكونَ الصِّدقُ له مَنْجاةً مِن غضَبِ اللهِ ورَسولِه عليه.

وذكَرَ لرَسولِ اللهِ ﷺ أنَّه لو جلَسَ عندَ أيِّ أحَدٍ مِن أهْلِ الدُّنْيا غير رَسولِ اللهِ ﷺ؛ لاسْتَطاعَ أنْ يَخرُجَ مِن غضَبِه بعُذرٍ يَقبَلُه ويُرْضِيه؛ فقدْ

أُعْطيَ جَدلًا، أي: فَصاحةً وقوَّةَ كَلامٍ، بحيث يَخرُجُ مِن عُهْدةِ ما يُنسَبُ إليه ممَّا يُقبَلُ ولا يُرَدُّ، قال: ولَكنِّي واللهِ، لقدْ علِمْتُ لئنْ حدَّثتُكَ اليومَ حَديثَ كَذِبٍ تَرْضى به عنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يُسخِطَكَ علَيَّ، ولئنْ حدَّثتُكَ حَديثَ صِدقٍ تَجِدُ علَيَّ فيه -أي: تَغضَبُ علَيَّ فيه- إنِّي لَأرْجو فيه عَفوَ اللهِ، ثمَّ صارَحَ رَسولَ اللهِ ﷺ بحَقيقةِ أمْرِه، قائلًا: لا واللهِ، ما كان لي مِن عُذرٍ، واللهِ ما كُنتُ قطُّ أقْوى ولا أيسَرَ -منَ اليَسارِ، وهو الغِنى وسَعةُ العَيشِ- منِّي حينَ تَخلَّفْتُ عنكَ. فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «أمَّا هذا فقدْ صدَقَ، فقُمْ حتَّى يَقْضيَ اللهُ فيكَ»، أي: يَحكُمَ اللهُ في أمرِكَ وشأنِكَ.

صدق كعب بن مالك وثباته رغم اللوم

وقام كَعبٌ رضي الله عنه مِن عندِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فقام إليه رِجالٌ مِن أهلِه مِن بَني سَلِمةَ، ولَامُوه أشَدَّ اللَّومِ على ما فعَلَ، وذَكَروا له أنَّه كان يَنبَغي عليه أنْ يَعتَذِرَ لرَسولِ اللهِ بأيِّ عُذرٍ كما اعتَذَرَ المُخلَّفونَ غيرُه، وأنَّ استِغْفارَ رَسولِ اللهِ ﷺ له كما استَغفَرَ لغَيره، كافٍ له في مَحْوِ خَطيئَتِه، وتَكفيرِ ذَنْبِه.

وتَأثَّرَ كَعبٌ -رَضيَ اللهُ عنه- بكَلامِهم، وهمَّ أنْ يَرجِعَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فيُغيِّرَ كَلامَه الَّذي قالَه لرَسولِ اللهِ ﷺ، ولكنْ عصَمَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ وذلك بأنْ سألَ: هلْ فعَلَ أحدٌ، وتَخلَّفَ عنِ الغَزْوةِ وصدَقَ رَسولَ اللهِ ﷺ غَيري؟

قالوا: نَعَمْ، رَجُلانِ؛ هما: مُرارةُ بنُ الرَّبيعِ العَمْريُّ، وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفيُّ، رَضيَ اللهُ عنهما، قالا كما قُلتَ لرَسولِ اللهِ ﷺ، وأجابَهم رَسولُ اللهِ ﷺ بنفْسِ الجَوابِ الَّذي أجابَه لكَ.

فذكَرَ كَعبٌ ﷺ صَلاحَ هَذَين الرَّجُلَيْن، وأنَّهما قد شَهِدا بَدرًا، وهو بَيانٌ وتَأكيدٌ لمَدى فَضلِهما، وأنَّ فيهما قُدوةً في المُضيِّ في طَريقِ الحقِّ، وفي الثَّباتِ على الصِّدقِ

النهي عن التكلم مع الثلاثة

ثمَّ نَهى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه المُسلِمينَ عنِ التَّكلُّمِ معَ الثَّلاثةِ: كَعْبٍ، ومُرارةَ، وهِلالٍ رَضيَ اللهُ عنهم، فاجتَنَبَهم جَميعُ النَّاسِ، ولم يُكلِّمْهم أحدٌ، فاعتَزَلَ مُرارةُ وهِلالٌ- رَضيَ اللهُ عنهما- يَبْكيانِ في دارِهما.

حال كعب رَضيَ اللهُ عنه

وأمَّا كَعبٌ رَضيَ اللهُ عنه، فكان أقْوى مِن الرَّجُلَيْن، وأكثَرَ منهما صَبْرًا وجَلَدًا، فكان يَمْشي بيْن النَّاسِ ويَشهَدُ صَلاةَ الجَماعةِ، ويَطوفُ في الأسْواقِ دونَ أنْ يَتكلَّمَ معَه أحدٌ، ويُخبِرُ أنَّه تَغيَّرَ عليه كلُّ شَيءٍ، حتَّى الأرْضُ الَّتي يَمْشي عليها تَغيَّرتْ، فما هي الأرْضُ الَّتي يَعرِفُها، وظلَّ على هذه الحالِ خَمسينَ يومًا.

مواقف مع النبي - صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

ويَحْكي كَعبٌ رَضيَ اللهُ عنه بعضَ المَواقِفِ الَّتي حدَثَت معَه؛ فيَذكُرُ أنَّه كان يَشهَدُ الصَّلاةَ، ويَأتي إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فيُسلِّمُ على النَّبيِّ ﷺ وهو جالسٌ في مَجلِسِه بعْدَ الصَّلاةِ، فلا يَدْري هلْ حرَّكَ ﷺ شفَتَيْه وردَّ عليه السَّلامَ أمْ لا؟ وإنَّما لم يَجزِمْ كَعبٌ بتَحْريكِه ﷺ شفَتَيْه بالسَّلامِ؛ لأنَّه لم يكُنْ يُديمُ النَّظرَ إليه خَجلًا.

ويَذكُرُ أنَّه كان يُصلِّي قَريبًا مِن رَسولِ اللهِ ﷺ، فيَنظُرُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ خُفْيةً، فإذا أقبَلَ كَعبٌ على صَلاتِه نظَرَ إليه النَّبيُّ ﷺ، وإذا الْتَفَتَ كَعبٌ رضي الله عنه نحْوَ النَّبيِّ ﷺ أعرَضَ عنه.

ذهابه إلى ابن عمه

ويَحْكي رضي الله عنه أنَّه لمَّا طال به إعْراضُ النَّاسِ عنه، حاوَلَ أنْ يَتكلَّمَ معَ ابنِ عَمِّه -يَعني من أهلِه بَني سَلِمةَ- وأحَبِّ النَّاسِ إليه؛ أبي قَتادةَ الحارِثِ بنِ رِبْعيٍّ الأنْصاريِّ رَضيَ اللهُ عنه، فتَسَوَّرَ حائطَ حَديقَتِه، أي: عَلا جِدارَ بُستانِ أبي قَتادةَ -رَضيَ اللهُ عنه- ثمَّ سلَّمَ عليه، فلمْ يرُدَّ عليه أبو قَتادةَ رضي الله عنه السَّلامَ؛ لعُمومِ نَهيِ النَّبيِّ ﷺ عن كَلامِه.

وسَألَه كَعبٌ باللهِ عزَّ وجلَّ: هلْ تَعلَمُني أُحِبُّ اللهَ ورَسولَه؟ فلمْ يرُدَّ عليه، فكرَّرَ كَعبٌ عليه السُّؤالَ، فلمْ يرُدَّ عليه، فكرَّرَه فلمْ يرُدَّ عليه سِوى بقَولِه: «اللهُ ورَسولُه أعلَمُ»، وليس ذلك تَكْليمًا لكَعبٍ رضي الله عنه؛ لأنَّه لم يُجِبْه إلى سُؤالِه؛ بل أظهَرَ اعتِقادَه في عِلمِ اللهِ ورَسولِه لكلِّ شَيءٍ

بكاء كعب - رَضيَ اللهُ عنه

ولمَّا رَأى كَعبٌ رضي الله عنه منِ ابنِ عمِّه ما رَأى، فاضَتْ عَيْناه بالدَّمعِ باكيًا لحالِه الَّذي وصَلَ إليه، وعادَ فتَسوَّرَ جِدارَ الحَديقةِ ورجَعَ، فلمْ يدخُلْ أو يَخرُجْ مِن البابِ، ولكنَّه دخَلَ خُفْيةً خَوفًا وخَجلًا مِن النَّاسِ.

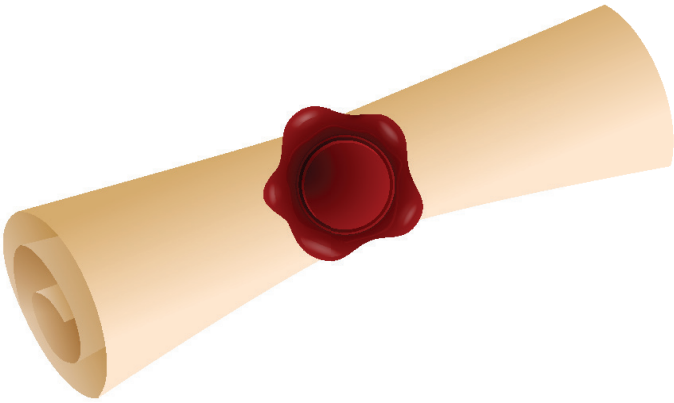

وذكَرَ كَعبٌ ﷺ أنَّه بيْنَما يَمْشي بسُوقِ المَدينةِ، وجَدَ نَبَطيًّا مِن الشَّامِ -يَعني: رَجلًا فلَّاحًا- وكان نَصْرانيًّا قدِمَ ليَبيعَ طَعامًا بسُوقِ المَدينةِ، وجَدَه كَعبٌ ﷺ يَسألُ عنه باسمِه قائلًا: مَن يدُلُّ على كَعبِ بنِ مالِكٍ؟

فأخَذَ النَّاسُ يُشيرونَ له إلى كَعبٍ ﷺ، ولا يَتكلَّمونَ؛ مُبالَغةً في هَجرِه والإعْراضِ عنه، حتَّى جاءه هذا النَّبَطيُّ، فأعْطاه كِتابًا مِن ملِكِ غَسَّانَ -هو جَبَلةُ بنُ الأيْهَمِ، أو هو الحارِثُ بنُ أبي شَمِرٍ، وغَسَّانُ قيلَ: إنَّها ماءٌ باليمَنِ قُربَ سدِّ مأرِبَ- يَدْعوه في كِتابِه هذا إلى تَركِ النَّبيِّ ﷺ، وتَركِ أصْحابِه، مُنتَهِزًا تلك الفُرصةَ؛ ليَفتِنَ كَعبَ بنَ مالِكٍ ﷺ عن دِينِه، وكتَبَ له في هذا الكتابِ: «أمَّا بَعدُ؛ فإنَّه قد بَلَغَني أنَّ صَاحِبَكَ قدْ جَفاكَ، ولم يَجعَلْكَ اللهُ بِدارِ هَوانٍ، ولا مَضْيَعةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِكَ»، والمَعنى: أنَّه وصَلَنا أنَّ محمَّدًا ﷺ قدْ قاطَعَكَ، ولم يُرِدِ اللهُ لكَ أنْ تكونَ بدارِ ضَعفٍ وحَقارةٍ، ولا دارٍ يَضيعُ فيها حقُّكَ؛ فَأتِ إلينا نُخفِّفْ مِن حُزنِكَ ومُصابِكَ.

فلمَّا قَرَأَ كَعبٌ ﷺ هذه الصَّحيفةَ، قال: هذا واللهِ منَ البَلاءِ، وذَهَبَ بها إلى التَّنُّورِ -وهو الفُرنُ الَّذي يُخبَزُ فيه- وأشعَلَه بها، فجَعَلَها مع الحَطَبِ الذي يُوقَدُ به، وهذا يدُلُّ على قوَّةِ إيمانِه، وشدَّةِ مَحبَّتِه للهِ ورَسولِه على ما لا يَخْفى.

القرار باعْتِزالِ النساء

فلمَّا مَضَتْ أرْبَعونَ لَيلةً مِن الخَمسينَ، جاءَه أمْرُ رَسولِ اللهِ ﷺ باعْتِزالِ امْرأتِه عُمَيْرةَ بنتِ جُبَيرِ بنِ صَخرِ بنِ أُميَّةَ الأنْصاريَّةِ أمِّ أوْلادِه الثَّلاثةِ، أو هي زَوْجَتُه الأُخْرى خَيْرةُ، وألَّا يَقرَبَها، ولا يُباشِرَها، وكذا الحالُ بالنِّسبةِ إلى صاحِبَيْه مُرارةَ بنِ الرَّبيعِ، وهِلالِ بنِ أُميَّةَ - رَضيَ اللهُ عنهم- فذَهَبَت امْرأةُ هِلالٍ - رَضيَ اللهُ عنهما -واسمُها خَوْلةُ بنتُ عاصمٍ- إلى رَسولِ اللهِ ﷺ واسْتأذَنَته في أنْ تَخدُمَ هِلالًا ﷺ؛ لكَونِه شَيخًا كَبيرًا يَحْتاجُ مَن يَخدُمُه، وقاصِرًا عنِ القيامِ بشُؤونِ نفْسِه، فأذِنَ لها النَّبيُّ ﷺ أنْ تَظَلَّ معَه وتَخدُمَه، شَريطةَ ألَّا يُباشِرَها مُباشَرةَ الأزْواجِ، فأكَّدَتِ امْرأةُ هِلالٍ للنَّبيِّ ﷺ أنَّه لم يَقرَبْها منذُ أنِ ابْتَلاه اللهُ بهذا البَلاءِ، وما زال على حالٍ يَبْكي فيها نفْسَه.

رأي كعب بن مالك في طلب الاستئذان

ويَذكُرُ كَعبُ بنُ مالِكٍ ﷺ أنَّه لمَّا جاءَه الأمرُ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ باعْتِزالِ امْرأتِه، أمَرَها أنْ تَذهَبَ إلى أهْلِها، فتَبْقى عندَهم حتَّى يَقْضيَ اللهُ في هذا الأمرِ، ويَحْكي أنَّ بَعضَ أهْلِه قالوا له: لو اسْتأذَنْتَ رَسولَ اللهِ ﷺ في امْرَأتِكَ، أي: تَخدُمُكَ، وتَقومُ على شأنِكَ، كما أذِنَ لامْرأةِ هِلالِ بنِ أُميَّةَ أنْ تَخدُمَه، فقال: واللهِ لا أسْتأذِنُ فيها رَسولَ اللهِ ﷺ، وما يُدْريني

ما يقولُ رَسولُ اللهِ ﷺ إذا اسْتأْذَنْتُه فيها وأنا رَجلٌ شابٌّ؟! يَعني أقْوى على خِدْمةِ نفْسي.

واستُشكِلَ هذا القَولُ معَ نَهيِه ﷺ النَّاسَ عن التكلم مع الثلاثة، وأُجيبَ بأنَّ النَّهيَ عنِ المُكالَمةِ لم يكُنْ عامًّا لكلِّ أحدٍ؛ بلْ هو شامِلٌ لمَن لا تَدْعو حاجةُ هؤلاء إلى مُخالَطَتِه، ولكَلامِه مِن زَوْجةٍ وخادِمٍ ونحوِ ذلك؛ بدَليلِ بَقاءِ زَوْجاتِهم معَهم حتَّى هذا الحين، واسْتِئذانِ زَوْجةِ هِلالٍ - رَضيَ اللهُ عنهما- في خِدمَتِه، فنَهاها ﷺ عن أنْ يَقرَبَها، وأباحَ لها خِدمَتَه كما كانت تَخدُمُه، ولا بدَّ في ذلك مِن مُخالَطةٍ وكلامٍ، فلعلَّ الَّذي قال لكَعبٍ مِن أهْلِه ممَّن له أنْ يُكلِّمَه

بشرى الفرج وتوبة الله على كعب بن مالك وصاحبيه

ويَحْكي كَعبٌ رضي الله عنه أنَّه لَمَّا صلَّى صَلاةَ الفَجرِ صُبحَ خَمْسينَ لَيلةً منَ المُقاطَعةِ والهجرانِ، وهو على تلك الحالةِ الَّتي وصَفَها اللهُ عزَّ وجلَّ بقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [التَّوْبَة: ١١٨]، قدْ ضاقَتْ عليهم أنفُسُهم، أي: قُلوبُهم، فلا يَسَعُهم أنَسٌ ولا سُرورٌ من فَرطِ الوَحْشةِ والغَمِّ، وضاقَتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَت، أي: مع سَعَتِها، وهو مَثلٌ للحَيْرةِ في أمرِه، كأنَّه لا يجِدُ فيها مَكانًا يَقَرُّ فيه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا، و ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي: على سعتها ورحبها حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسَعَتها غمًّا وندمًا بسبب تخلفهم، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾، وضاقت عليهم أنفسهم لِمَا أصابهم من الهم، التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، كناية عن شدة تحيرهم، وكثرة حزنهم، واستسلامهم لحكم الله فيهم. أي: حتى إذا ضاقت

عليهم الأرض على سعتها، بسبب إعراض الناس عنهم، ومقاطعتهم لهم، وضاقت عليهم أنفسهم، بسبب الهم والغم الذي ملأها، واعتقدوا أنه لا ملجأ ولا مهرب لهم من حكم الله وقضائه إلا إليه

وذلك لأنهم قدموا رضا اللّه ورضا رسوله على كل شيء. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا اللّه وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا باللّه ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة. وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وفَّقهم الله سبحانه وتعالى إلى الطاعة والرجوع إلى ما يرضيه سبحانه. إن الله هو التواب على عباده، الرحيم بهم

جاءت البشرى، فبيْنَما كَعبٌ ﷺ هكذا، إذ سمِعَ صَوتَ رَجلٍ يُنادي بأعْلى صَوتِه، صعِدَ فَوقَ جبَلِ سَلْعٍ، وهو جَبلٌ بالمَدينةِ، وصارَ يُنادي: يا كَعبُ بنَ مالِكٍ أبشِرْ، فخَرَّ كَعبٌ ﷺ ساجِدًا حَمْدًا للهِ تعالَى، وشُكرًا له على تَوبتِه عليه، وعلِمَ أنَّه قدْ جاء الفرَجُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وأعلَنَ رَسولُ اللهِ ﷺ بتَوْبةِ اللهِ على الثَّلاثةِ المُخَلَّفينَ، وذهَبَ النَّاسُ يُبشِّرونَهم بتَوْبةِ اللهِ عليهم، فذهَبوا إلى صاحِبَيْه مُرارةَ وهِلالٍ - رَضيَ اللهُ عنهما مُبشِّرينَ بذلك، وأسرَعَ الزُّبَيرُ بنُ العوَّامِ ﷺ على فرَسٍ له إلى كَعبٍ ﷺ، وصعِدَ رَجلٌ مِن قَبيلةِ أسلَمَ -قيلَ: هو حَمْزةُ بنُ عَمرٍو الأسْلَميُّ- على جبَلٍ وصرَخَ بصَوْتِه مُبشِّرًا له، قال كَعبٌ: وكان الصَّوتُ أسرَعَ مِن الفرَسِ، فلمَّا جاء صاحِبُ الصَّوتِ -حَمْزةُ بنُ عَمرٍو الأسْلَميُّ ﷺ إلى كَعبٍ ﷺ، نزَعَ له كَعبٌ ثَوبَه وأعْطاه له هَديَّةً ومُكافأةً على بُشْراه له، قال كَعبٌ: واللهِ ما أملِكُ غَيرَهما يَومَئذٍ، واستَعَرْتُ ثَوْبَين فلَبِسْتُهما، وذهَبَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ.

فرحة التوبة والفضل العظيم للصِّدق

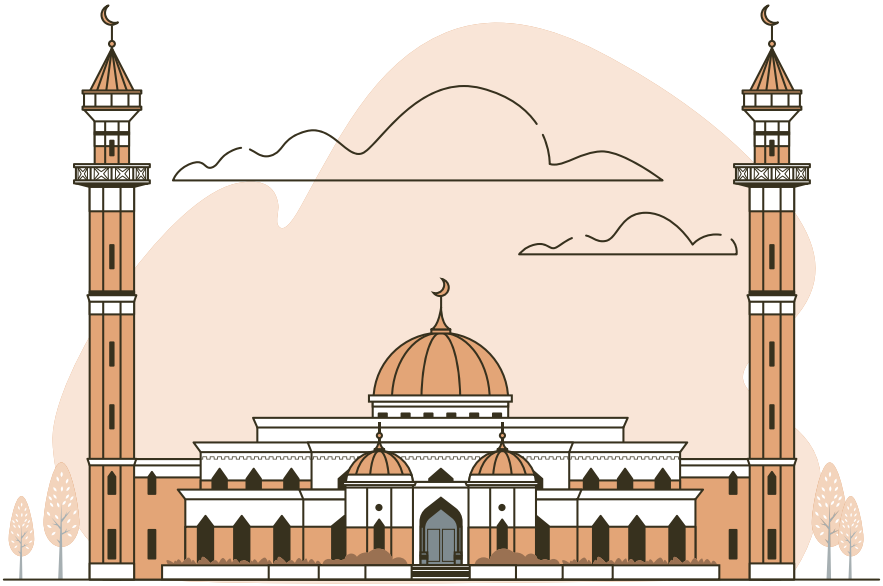

وكان النَّاسُ وهو في طَريقِه إلى مَسجِدِ النَّبيِّ ﷺ يُقابِلونَه أفْواجًا يُهَنِّئونَه بتَوْبةِ اللهِ عليه، فلمَّا دخَلَ المَسجِدَ وجَدَ رَسولَ اللهِ ﷺ جالِسًا، والنَّاسُ حَولَه، فبادَرَ إليه طَلْحةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ رضي الله عنه يُهَروِلُ -وهو السَّيرُ بيْن المَشيِ والجَري- فصافَحَه وهنَّأه، قال كَعبٌ رضي الله عنه: ولا أنْساها لطَلْحةَ، أي: ولا أنْسى هذا المَوقِفَ لطَلْحةَ، وهذا الإحْسانَ منه إليَّ، واقْتَرَبَ كَعبٌ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ، فسلَّمَ عليه، فقال له رَسولُ اللهِ ﷺ وهو في شِدَّةِ الفَرَحِ: «أبشِرْ بخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عليكَ منذُ ولدَتْكَ أُمُّكَ»، أي: سِوى يومِ إسْلامِه، وهو مُستَثنًى تَقْديرًا، وإنْ لم يَنطِقْ به ﷺ، أو أنَّ يومَ تَوْبتِه مُكمِّلٌ ليومِ إسْلامِه؛ فيومُ إسْلامِه بِدايةُ سَعادتِه، ويَومُ تَوْبتِه مُكمِّلٌ لهذه السَّعادةِ، فهو خَيرٌ مِن جَميعِ أيَّامِه، وإنْ كان يومُ إسْلامِه خَيرَها

فسَألَ كَعبٌ رَسولَ اللهِ ﷺ: أمِن عندِكَ يا رَسولَ اللهِ أمْ مِن عِندِ اللهِ؟ فأجابَه النَّبيُّ ﷺ: «لا، بلْ مِن عندِ اللَّهِ»

ويَذكُـرُ كَعـبٌ رضي الله عنه أنَّ رَسـولَ اللـهِ ﷺ كان إذا حصَـلَ لـه سُرورٌ، اسْتَنـارَ وَجهُـه حتَّى كأنَّـه قِطعـةُ قَمـرٍ، قـال: وكنَّـا نَعـرِفُ ذلـك منـه ﷺ، أي: نَعـرِفُ الَّـذي يَحصُـلُ لـه مـنِ اسْتِنـارةِ وَجهِـه عنـدَ السُّرورِ

وأرادَ كَعـبٌ أنْ يتَصَـدَّقَ بمالِه كُلِّه في سَبيلِ اللهِ، ولكـنَّ رَسـولَ اللهِ ﷺ أمَرَه أنْ يُمسِكَ عليه بَعـضَ مالِه، أي: يتَصَـدَّقَ بالبَعـضِ فقـطْ، ويُبْقيَ عندَه شَيئًـا مِـن مالِـه؛ لِكَي يُنفِـقَ بـه على نفْسِـه وعيالِـه؛ خَوفًـا عليـه مِـن تَضـرُّرِه بالفَقـرِ، فقـال كَعـبٌ رضي الله عنه: فـإنِّي أُمسِـكُ سَـهْمي الَّـذي بخَـيْبرَ، وكانـت خَـيْبرُ قَريـةً يَسكُنُها اليَهودُ، وكانت ذاتَ حُصونٍ ومَزارِعَ على بُعدِ ١٧٣ كيلو تَقْريبًا مِن المَدينةِ إلى جِهةِ الشَّامِ، فتَحَها رَسولُ اللهِ ﷺ سَنةَ سَبعٍ منَ الهِجْرةِ

وعاهَـدَ كَعـبٌ رَسـولَ اللـهِ ﷺ ألَّا يَتحـدَّثَ إلَّا بالصِّـدقِ أبـدًا مـا بَقـيَ حيًّا؛ فما نَجَّاه اللهُ عـزَّ وجـلَّ إلَّا بالصِّـدقِ، قـال كَعـبٌ رضي الله عنه ذاكـرًا نِعمـةَ اللهِ عليـه: «فواللهِ ما أعلَمُ أحَدًا مِن المُسلِمينَ أبْلاهُ اللهُ في صِدْقِ الحَديثِ منذُ ذكَرْتُ ذلك لرَسولِ اللهِ ﷺ، أحسَنَ ممَّا أبْلاني»

والـبَلاءُ والإبْلاءُ يكـونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، لكـنْ إذا أُطلِـقَ كان لـلشَّرِّ غالبًـا، فإذا أُريـدَ الخَيرُ قُيِّـدَ كما قيَّدَه هنا، والمَعنى: ما عَلِمْتُ أحدًا مِن المسلمينَ أبْلاهُ اللهُ تعالَى بصِدقِ الحديثِ إبلاءً أحسَنَ ممَّا أبْلاني اللهُ تعالَى به مِن وَقْتِ ذِكْري ذلك الأمرَ لرَسولِ اللهِ ﷺ إلى يَومي هذا الذي أتحدَّثُ فيه الآنَ

وأخبَرَ كَعـبٌ رضي الله عنه أنَّـه ما تعَمَّـدَ أنْ يَكـذِبَ كَـذبًا منـذ أنْ ذكَـرَ ذلـك لرَسـولِ اللـهِ ﷺ إلى يَـومِ أنْ حـدَّثَ بهـذا الحَديـثِ، وإنَّـه لَيَرْجـو أنْ يَحفَظَـه اللـهُ فيمـا بَقـيَ مـن عُمـرٍ، ويَظـلَّ مُلازِمًـا الصِّـدقَ

وأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قولَه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التَّوبَة ١١٧- ١١٩]

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب اللّه عليهم، حتى إذا كان أمرهم كذلك، جاءهم فرج الله، حيث قبل توبتهم، وغفر خطأهم وعفا عنهم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: بعد هذا التأديب الشديد لهم، تقبل- سبحانه - توبتهم، ليتوبوا إليه توبة صادقة نصوحًا، لا تكاسل معها بعد ذلك عن طاعة الله وطاعة رسوله، إن الله-تبارك وتعالى- هو الكثير القبول لتوبة التائبين، وهو الواسع الرحمة بعباده المحسنين[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية. وفي هذه الآيات دليل على أن توبة اللّه على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن اللّه جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها. ومنها: لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة

(١) ص٤٢٢ - كتاب التفسير الوسيط لطنطاوي - سورة التوبة - المكتبة الشاملة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر. ومنها: أن توبة اللّه على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة. ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًا، وانقطع عن المخلوقين[1].

فضل الصدق والتحذير من الكذب

ويَحلِفُ كَعبٌ ﷺ قائلاً: «فواللهِ ما أنعَمَ اللهُ علَيَّ مِن نِعْمةٍ قطُّ، بعْدَ أنْ هَداني اللهُ للإسْلامِ، أعظَمَ في نَفْسي مِن صِدْقي لرَسولِ اللهِ ﷺ، أنْ أكونَ كَذَبْتُه، فأهْلِكَ كما هلَكَ الَّذين كَذَبوا»

وأشار إلى أن الله -عز وجل- قد قال عن الكاذبين الذين اعتذروا بأعذار مختلقة، ما هو من أشدّ القول على الناس: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التَّوْبَة : ٩٥ - ٩٦]

ثم أوضح كعب ﷺ أنه قد تخلَّف هو وصاحباه هِلال بن أُمية، ومُرارة بن الرَّبيع - رَضيَ اللهُ عنهم- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له أن تخلُّفهم كان لعذر. فبايعهم رسول الله ﷺ واستغفر لهم، وأرجأ أمرهم، بينما أخّر رسول الله ﷺ الحكم في أمر الثلاثة حتى قضى الله فيه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التَّوْبَة : ١١٨] ليس المعنى أنهم تخلَّفوا عن الغزو، وإنما أخّر النبي ﷺ الحكم في أمرهم إلى أن يحكم الله تعالى، بخلاف من حلف للنبي – صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- واعتذر إليه، فقبل منه

(١) ص٣٥٤ - كتاب تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن - المكتبة الشاملة.

وقد أمر الله -عز وجل- بالصدق، وجعل النجاة في الدنيا والآخرة مرتبطة به، حتى وإن بدا في الظاهر أن فيه الهلاك لصاحبه. كما حرم الكذب، وجعله سبباً للخسارة والبوار في الدنيا والآخرة، حتى وإن بدا في الظاهر أن فيه النجاة

دروس مستفادة من قصة كعب بن مالك - رَضِيَ اللهُ عنه

١. فضل الصدق:

الصدق هو سبب النجاة في الدنيا والآخرة، حتى إن بدا ظاهره أنه قد يؤدي إلى الهلاك

كعب رضي الله عنه وجد أعظم نعمة من الله في صدقه مع رسول الله - صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

٢. عاقبة الكذب:

الكذب يؤدي إلى الخسارة والهلاك، وهو طريق المنافقين الذين برروا تخلفهم عن الغزو بأعذار كاذبة

٣. التوبة باب النجاة:

قبول الله لتوبة العبد هو أعظم نعمة يمكن أن يحظى بها الإنسان.

يوم توبة العبد هو أفضل أيام حياته.

٤. أهمية الاعتراف بالخطأ:

الاعتراف بالذنب والتقصير دليل على صدق التوبة والإخلاص لله.

٥. حسن تعامل القائد مع أتباعه:

النبي ﷺ تعامل مع كعب وصاحبيه بحكمة، فلم يقبل أعذارًا كاذبةً، ولم يعجل في الحكم عليهم، بل ترك أمرهم لحكم الله

القائد ينبغي أن يكون حازمًا وعادلًا في الوقت نفسه.

٦. الهجر المشروع:

الهجر الذي يهدف إلى الإصلاح والتأديب مشروع، كما فعل النبي ﷺ مع الثلاثة الذين تخلفوا

يجب أن يكون الهجر محددًا بهدف التوبة والعودة إلى الحق.

٧. أهمية الصحبة الصالحة:

الصحابة لم يتركوا كعبًا وحيدًا، بل كان هناك تواصل إيجابي ومواساة بعد التوبة؛ مما يدل على دور الصحبة الصالحة في تعزيز الإيمان

٨. حكم قبول الأعذار:

القائد يحكم بالظاهر ويقبل الأعذار إذا كانت صادقة، ولكنه لا يتهاون مع الكذب

٩. تعظيم شأن الطاعة:

الالتزام بأوامر القائد (النفير العام) واجب، والتخلف عنه دون عذر شرعي يستوجب اللوم

١٠. التبشير والتهنئة بالخير:

تهنئة كعب من الصحابة ومصافحتهم له دليل على أهمية مشاركة الفرح مع الآخرين، خاصة في الأمور الدينية

١١. التواضع في التعامل:

النبي ﷺ كان يهنئ كعبًا بنفسه، مما يدل على تواضعه وحسن خلقه مع أصحابه

١٢. فضل أهل بدر والعقبة:

تذكير كعب بفضل أهل بدر والعقبة يُظهر مكانتهم العالية عند الله وعند الناس

١٣. الأخذ بالأسباب مع التوكل:

كعب رضي الله عنه تعلم أن النجاح يكون بالصدق والعمل، وليس بالكذب والاحتيال

هذه القصة تحمل دروسًا عظيمة في الصدق، والتوبة، وحسن التعامل، وتُظهر جمال الإسلام في الأخلاق والتربية

م	المراجـــع
١	كتاب تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن -سورة التوبة.
٢	شرح حديث كَعبِ بنِ مالِكٍ - رَضيَ اللهُ عنه -الموسوعة الحديثية الدررالسنية.https://dorar.net/hadith/sharh/٧١٩٠
٣	كتاب التفسير الوسيط لطنطاوي - سورة التوبة.